اسم الدرس : لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر | سلسلة قصة آية

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن شاء الله سنحاول في جلسات الفجر أن نتناول قصة آية، وقد تحدّثنا في المرة الماضية عن قول الله سبحانه وتعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا} [الأحزاب:69]،

وسنحاول اليوم أن نتحدث عن قصة آية أخرى، وهي قول الله سبحانه وتعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة:41]

نداء محمد ﷺ في القرآن

في أي سورة هذه الآية؟ سورة المائدة، بدأت الآية بقول الله سبحانه وتعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ}، والله سبحانه وتعالى عندما يوجه أي نداء لأي نبي في القرآن يقول: يا موسى، يا إبراهيم {يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ} [هود:76]؛ فهذا يكون بالاسم المباشر للنبي، لكن عندما يوجّه النداء للنبي محمد صلى الله عليه وسلم يكون إما: بوصف الحال الذي كان عليه في أول البعثة: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ} [المدثر:1] {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ} [المزمل:1]، أو بوصف النبوة {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ}، أو بوصف الرسالة {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ}.

فلا يوجد في القرآن (يا مُحَمَّد)، إنما جاءت كلمة "مُحَمَّد" صلى الله عليه وسلم فحسب من دون نداء أربع مرات في القرآن: { مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ } [الفتح:29] سورة الفتح، { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ } [آل عمران:144] سورة آل عمران، { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ } [الأحزاب:40] سورة الأحزاب، { وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ } [محمد:2] سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي آية اليوم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ} وقد جاءت مرتين في القرآن في نفس السورة؛ سورة المائدة، أما (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ) فقد جاءت أكثر من مرة.

والمرتان اللتان جاءت فيهما {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ} هما: آية درس اليوم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ}، والثانية: آية {بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ}[المائدة:67].

وعندما تكلّم العلماء قالوا أنَّ النداء بوصف النبوة يختلف عن النداء بوصف الرسالة، وبالتأكيد كلٌّ من النبوة والرسالة فيهما تكليف، وتشريف، وأي تشريف في القرآن، وأي رفعة مقام يلزم أن يتبعها تكليف: {يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ}[آل عمران:42] هذا تشريف، {يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي}[آل عمران:43] وهذا تكليف.

وقال ربنا سبحانه وتعالى لسيدنا موسى: {إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي}[الأعراف:144]؛ وهذا تشريف لسيدنا موسى، ولكن قال سبحانه وتعالى بعده: {خُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ}[الأعراف:144] وهذا تكليف.

فالتشريف في الدين ليس معناه أنه إذا وصل أحدهم إلى مقام عالٍ في الدين فليس عليه أن يعمل للدين، بل معناه: أنَّ عليه أن يعمل للدين أكثر ويُكَلَّف أكثر.

وقد قال البعض: أنَّ مقام الرسالة يغلب عليه طابع التكليف أكثر؛ أي أن المهام عليه أكثر؛ لذلك عندما ترى هاتين الآيتين تحديدًا في سورة المائدة: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ}، و{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ}؛ فهاتان الآيتان فيهما: أنَّ أتْباع النبي صلى الله عليه وسلم من الممكن أن يحدث منهم إحجام عن التبليغ في هذا المقام؛ فيخافون أن يبلغوا دين ربنا –في هذه الآيات تحديدًا كما سنرى–؛

لذلك قال الله له في الثانية: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ}؛ أي: إذا لم تُبلِّغ آيات القرآن كلها {فما بلغت رسالته}، أي: إذا بلَّغت جزءًا من القرآن، ولم تُبَلِّغ الباقي؛ فكأنك لم تبلِّغ شيئًا، {وإن لم تفعل} قال ابن عباس: أي: "وإن لم تبلّغه كاملًا". فيلزمك أن تبلّغ القرآن كاملًا، {وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ} ولأنه من الممكن أن ينتاب الإنسان شيءٌ من الخوف؛ يقول تعالى: {وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ}؛ فتأتي العصمة والحفظ في القرآن دائمًا مع تبليغ الدين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ

ما قصة هذه الآية؟

عندما ترجع إلى أقوال المفسرين؛ تجد حقيقة أقوالًا كثيرة، سنحاول أن نختار بعضها ونُجملها؛ بحيث نفهم سياق الآية كاملًا.

من {ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ}؟

هناك أناس في القرآن يسارعون في الطاعات: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء:90]، وهناك أناس يسارعون في الكفر –والعياذ بالله–.

انتبه: يسارع في الخيرات، ويسارع في الكفر، ولم يقل: يسارع إلى، بل قال: يسارع في الكفر؛ لأنه أصلًا –والعياذ بالله– منغمس في الكفر، ثم ينتقل إلى دركات الكفر، كالآخر: يسارعون في الخيرات، وليس إلى الخيرات، فهو أصلًا في خير، ولكن ينتقل من خير إلى خير، مثل أن يكون في التراويح، فيسمع عن فقير محتاج، فينتهي من التراويح، ويذهب لزيارته ويعطيه، فيسمع عن مريض، فيذهب ليزوره، فينتقل بين أعمال الخير، وحياته أصلًا داخل دائرة الخير، لا يخرج منها؛ لهذا جاء حرف الانغماس: حرف (في) الخيرات، وهُنا {يسارعون في الكفر}.

{مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ} ما هذه القصة؟

حضور المنافقين مجلس النبي ﷺ

كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس في المجلس لتعليم الصحابة، وكان يحضره بعض المنافقين: {مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ}، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحزن لكونهم موجودين في المجلس، ولا يتأثرون بالكلام، ويستمرون على نفاقهم وكفرهم، وكان صلى الله عليه وسلم يعرفهم بلحن القول، ويعرفهم بفلتات اللسان التي تخرج منهم، فكان صلى الله عليه وسلم حزينًا، وخائفًا عليهم؛ فقال

له ربنا عنهم: {لم يرد الله أن يطهر قلوبهم}؛ فهؤلاء أصروا على الفتن -كما سنذكر في آخر الآية-، {ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ}.

إذًا؛ هناك صنف منافق كل همه مصلحته فحسب، يجلس في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وكل همه أن يحافظ على دمه، وماله، ودنياه؛ فيحضر المجلس رياءً فحسب، وهذا هو الصنف الأول الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم حزينًا عليه جدًّا.

حضور اليهود مجلس النبي ﷺ

والصنف الثاني: {وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ} فمن هؤلاء إذًا؟

كان هناك بعض اليهود يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم متنكرين، ويدّعون أنهم مسلمون، فيحضرون أيضًا، ولكن ليس لمجرد الرياء والنفاق؛ فهناك من ينافق لأجل النفاق، والمصلحة، والمحافظة على نفسه، ولكن اليهود ليسوا كذلك، وإنما هم خبثاء دائمًا، ويخططون باستمرار لهدم الدين: {كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ} [المائدة:64]؛ فاليهود دائمًا يريدون المشاكل والفتنة، ولكن: {أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا}، فربنا يقول هُنا أنَّ بعض اليهود كانوا يحضرون مجلس النبي صل الله عليه وسلم.

{وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ} ما معنى {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ}، وهم هُنا يسمعون للنبي صلى الله عليه وسلم؟

إذًا؛ النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إلى المجلس، وهناك جزء ممن يحضرون المجلس منافقون، يجلسون وهمّهم مصلحتهم فحسب، ويدّعون أنهم مؤمنون، وهناك صنفٌ آخر في المجلس؛ وهم اليهود، يجلسون في المجلس، ويدّعون أنهم مؤمنون أيضًا، ولكنهم جاؤوا لأغراض؛ {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ} قيل: أي: سمّاعون لأجل أن يكذبوا عليه؛ أي: أنهم يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وعندما ينتهي المجلس يخرجون، فيسألهم الناس: ماذا كان يقول محمد صلى الله عليه وسلم في المجلس؟ فيقولون أنه قال: يجب أن نقتل البشرية كلها، ونسحقهم، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك!؛ فيخرجون من مجلسه، ويكذبون عليه صلى الله عليه وسلم؛ ليُنفّروا الناس من الدين.

فيحضر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، ويدّعي أنّه مسلم، وأتى ليسمع عن الإسلام، ثم يقول للناس بعد أن يحضر: ما هذا؟، لقد دخلت في الإسلام، ولكن عندما حضرتُ مجلس النبي؛ وجدته دينًا صعبًا ولا يُحتمَل، ويكذب على النبي صلى الله عليه وسلم.

- إذًا؛ اليهود جاءوا يسمعون، ولكن ليس لأجل الاستفادة، أو الهدى، وإنما {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ}؛ وهُنا قال بعض المفسرين أنَّ اللام بمعنى: لأجل؛ أي: {سَمَّٰعُونَ} لأجل الكذب.

- أو يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمعون الكذب الذي يُقال عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويصدّقونه؛ بمعنى: أنَّ هناك كلامًا يُقال عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبدلًا من أن يُبَرِّئوه من التهم التي تُلقى عليه؛ يسمعون الكلام الذي يُلقى لتهمة النبي صلى الله عليه وسلم، ويصدّقونه، ويأتون إلى المجلس؛ لينشروا هذه الإشاعات بين حاضري المجلس؛ ويفتنوا الصحابة {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ}.

أريدك أن تتخيل معي المشهد الذي كان يحدث: النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إلى المجلس، وهناك مؤمنون صادقون في المجلس، وهناك منافقون يجلسون رياءً وسمعة فحسب، وهناك يهود أتَوْا ليمثلوا أنّهم مسلمون لعدة أغراض:

- الغرض الأول: يحضر ليأخذ الكلام، ويضيف عليه إشاعات ويكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، إذًا؛ هذه هي الوظيفة الأولى التي يحضر من أجلها؛ لأنه ليس كل الذين يأتون إلى المجلس يأتون من أجل الاستفادة.
- والغرض الثاني أو الوظيفة الثانية: {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ} ؛ وهناك أقوال كثيرة، نختار منها قولًا ذكره الإمام الطبري وغيره: أنَّ اليهود السادة الأشراف لا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي: يستنكفون، فماذا يفعلون؟

بتعبير البغوي، وابن عطية، وغيره من المفسرين: يرسلون جواسيس من اليهود؛ ليحضروا المجلس، ولهؤلاء الجواسيس وظيفتان: الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، ونشر الإشاعات، ونقل كلام النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليهود الكبار: {سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ}.

وماذا يفعل هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم –وهم اليهود الكبار– بالكلام الذي نقله إليهم جواسيسهم؟ ولماذا هم يريدون أن يعرفوا كلام النبي؟

لأجل شيئين: الكذب على النبي، والشيء الآخر: {يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}، فما معنى {يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ}؟ وقد جاءت تقريبًا ثلاث مرات في القرآن، وفي إحدى هذه المرات جاءت:{عن مواضعه}،وجاءت أيضًا {من بعد مواضعه}؛ مرة في سورة النساء ومرتين في سورة المائدة: مسألة تحريف الكلم {عن مواضعه}، و{من بعد مواضعه}.

فما معنى {يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}؟

الله سبحانه وتعالى تكلم بهذا الكلام حقيقة، وعندما تكلم الله بهذا الكلام، فهذا الكلام له مواضع على الأرض، ما معنى له مواضع على الأرض؟

أريدك أن تتخيل معي مثلًا: لو أنك تنظر إلى الكرة الأرضية من أعلى: الكرة الأرضية مُقسَّمة إلى قارات، والقارات مُقَسّمة إلى دول، وهناك محيطات، وأنهار؛ هذه هي التقسيمة الجغرافية للكرة الأرضية، فالذي يريد أن يلعب في جغرافية الأرض، بأن يُبدّل بين المحيطات والأنهار، ويفتح قارتين على بعضهما، ويضع قارة مكان قارة وهكذا، هو بهذا يلعب في منارات الأرض التي وضعها الله في الأرض؛ وهذا مستحيل.

ولو أتينا لننظر إلى الكرة الأرضية بالطريقة الشرعية، ماذا تعني الطريقة الشرعية؟

أي: أنَّ ربنا أراد أن تكون هناك علاقات معينة مرسومة على الأرض: فهناك علاقة للمسلمين مع بعضهم، وهي تختلف عن علاقة المسلمين بالكفار، وغير علاقة الأب بابنه، وعلاقة الزوجة بزوجها، والزوج مع زوجته، وعلاقة الصديق مع صديقه؛ هذه الروابط والعلاقات وضعها ربنا.

وأي رابطة وعلاقة نُقدِّم على الأخرى؟ ومتى نُقدِّم رابطة الإسلام على رابطة التراب؟ ومتى تُقدَّم رابطة الإسلام على رابطة النسب؟ ومتى تُقدَّم رابطة النسب...؟

كل هذه الأشياء قد وضعها ربنا، ووضع أيضًا تشريعات، وحدود: حد للسرقة، وحد للزنا...إلخ، **فدورنا تجاه كلام ربنا: أن نأخذ كلامه، ونُنَزِّله على مواضعه**، ولكن عندما نأخذ كلام ربنا، ونُحرفه ولا ننزّله على مواضعه؛ فنحن بهذا نُحرِّف الكلم عن مواضعه؛ كالذي يريد تغيير خريطة الأرض.

فربنا أراد أن يكون هناك شكل للمسلمين، وشكل للأمة الإسلامية التي طُبِّقت في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا هو الشكل الذي يرضاه ربنا؛ لذلك عندما حدثت خلافات بين المهاجرين والأنصار، وهذا قال: يا للمهاجرين، وذاك قال: يا للأنصار، فكانوا يتنازعون بصورة غير شرعية؛ غضب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم)[1]؛ فهم هكذا يغيرون المواضع التي أرادها ربنا.

فالله تكلم بكلام عظيم، ولهذا الكلام مواضع على الأرض، وهذا الكلام نزل ليُطبَّق؛ كما في قوله تعالى: {إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ} [النساء:105]، فهذا الكلام نزّله ربنا؛ ليُطبَّق على الأرض، وعندما لا ننزل كلامه سبحانه وتعالى على مواضعه؛ نكون بهذا قد حرَّفنا الكلم عن مواضعه.

فكان اليهود يأخذون كلام النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون: هذه لن نطبّقها، وتلك لن تنفع، وهذه سنخدع المسلمين ونقول لهم أنَّها لا تنفع، ويستمرون في تحريف كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهم لا يكذبون فحسب، بل يحرفون أيضًا الكلام الذي أراده الله أن يستقر.

---

1 [عن زيد بن أسلم:] مرَّ شاسُ بنُ قيسٍ وكانَ شيخًا قد عسا في الجاهليةِ عظيمَ الكفرِ شديدَ الطعنِ على المُسلِمينَ شديدَ الحسدِ لهم على نَفَرٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ من الأوسِ والخزرجِ في مجلسٍ قد جمَعَهُمْ يتحدَّثُونَ فيه فغاظَهُ ما رأى من أُلْفَتِهِم وجماعتِهِم وصلاحِ ذاتِ بينِهِم على الإسلامِ بعد الذي كان بينَهم من العداوةِ في الجاهليةِ فقال قد اجتمَعَ ملأُ بني قيلةَ بهذِهِ البلادِ واللهِ ما لنا معهُم إذا اجتمع ملَؤُهم بها من قرارٍ فأَمَرَ فتىً شابًّا معه من يهودٍ فقال اعمَدْ إليهم فاجلِسْ معَهم ثمَّ ذَكِّرْهُم يومَ بُعاثٍ وما كان قبْلَه وأنشدَهم بعضَ ما كانوا يتقاوَلُونَ فيه من الأشعارِ وكانَ يومَ بعاثٍ يومًا اقتتَلَتْ فيه الأوسُ والخزرجُ وكان الظَّفَرُ فيه للأوسِ على الخزرَجِ ففَعَلَ فتكَلَّمَ القومُ عند ذلك وتنازَعُوا وتفاخَرُوا حتَّى تَوائَبَ رجلانِ من الحَيَّيْنِ على الرُّكَبِ أوسُ بنُ قَيْظِيٍّ أحدُ بني حارِثَةَ مِنَ الأوسِ وجُبارُ بنُ صخرٍ أحدُ بني سلمةَ من الخزرجِ فتقاوَلا ثم قالَ أحدُهُما لصاحبِهِ إنْ شِئْتُمْ واللهِ رددناها الآنَ جَذَعَةً وغَضِبَ الفَرِيقانِ جميعًا وقالُوا قد فعلْنا السلاحَ السلاحَ موعِدُكُمُ الظاهرةُ والظاهرةُ الحَرَّةُ فخرجوا إليها وانضمَّتْ الأوسُ بعضُها إلى بعضٍ والخزرجُ بعضُها إلى بعضٍ على دَعْواهُمُ التي كانوا عليها في الجاهليةِ فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فخرجَ إليهم فيمَنْ معه من المُهاجِرينَ من أصحابِهِ حتَّى جاءَهم فقالَ يا معشرَ المُسلِمينَ اللهَ اللهَ أبدَعْوى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُمْ بعدَ إذْ هداكُمُ اللهُ إلى الإسلامِ وأكرَمَكُمْ بِهِ وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ واستنقذَكُمْ به من الكفرِ وألَّفَ به بينَكم ترجِعونَ إلى ما كنتم عليه كفارًا فعرَفَ القومُ أنها نَزغَةٌ من الشيطانِ وكيدٌ من عدوِّهِم لهم فألْقَوْا السلاحَ مِن أيديهِم وبَكَوْا وعانَقَ الرجالُ بعضُهم بعضًا ثم انصرَفُوا مع رسولِ اللهِ ﷺ سامِعِينَ مطيعينَ قد أطْفَأَ اللهُ عنهم كيدَ عدوِّ اللهِ شاسٍ وأنزلَ اللهُ في شأنِ شاسِ بنِ قيسٍ وما صَنَعَ {قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ} إلى قوله {وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ} وأنزلَ في أوسِ بنِ قَيْظِيٍّ وجُبارِ بنِ صخرٍ ومَن كانَ معهما من قومِهِما الذين صنَعُوا ما صنعوا {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ} إلى قوله {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ}
الشوكاني (ت ١٢٥٥)، فتح القدير ٥٤٨/١ • رويت هذه القصة مختصرة ومطولة من طرق

وإذا أردنا أن نأخذ نموذجًا لما ذكرت، فهو السبب الذي قيل أنَّ من أجله نزلت الآية، والحديث في صحيح مسلم، وفي مسند الإمام أحمد.

السؤال عن حد الزنا

{يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ}.

أكرر مرة أخرى: النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إلى المجلس، وهناك منافقون جالسون، وكل همّهم مصلحتهم، وهناك يهود صغار؛ جواسيس أتَوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليسمعوا الكلام، ويأخذونه لأجل شيئين: إما أن يضيفوا عليه كلامًا لم يقله النبي فيكذبون عليه، وإما أن يحرفوه، ويُغيّرونه عن مواضعه.

ثم يرسل اليهود الكبار اليهودي الصغير مرة أخرى، ويقولون: سنرسلك إلى المجلس مرة أخرى، ولكن في هذه المرة المهمة مختلفة؛ سنرسلك بسؤال تسأله للنبي في المجلس، وتُظهر أنك أنت الذي تسأله هذا السؤال، ولْنَرَ إجابته، فعلى حسب إجابته؛ سنعرف أهوَ صادق أم لا!

فاليهودي الكبير يرسل اليهودي الصغير المنافق، ويقول: اذهب واسأله عن حالة زنا حدثت عند اليهود؛ فماذا تحكم فيها؟ هل تحكم بالرجم، أم بالجَلد؟ والزاني كان مُحصنًا، فأرسله ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك رواية أنَّ من سأله ليس المنافقون الصغار، إنما سأله أشراف اليهود وساداتهم، وكانوا بصورتهم اليهودية وليسوا كمنافقين، فقالوا: نحن الآن نريد أن نسألك سؤالًا، ولكن نريد منك إجابة ترضينا، وليست إجابة صادمة. [2]

2 [عن عبدالله بن عمر:] إنَّ اليَهُودَ جاؤُوا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرُوا له أنَّ رَجُلًا منهمْ وامْرَأَةً زَنَيا، فَقالَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: ما تَجِدُونَ في التَّوْراةِ في شَأْنِ الرَّجْمِ فَقالوا: نَفْضَحُهُمْ ويُجْلَدُونَ، قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ: كَذَبْتُمْ إنَّ فِيها الرَّجْمَ، فأتَوْا بالتَّوْراةِ فَنَشَرُوها، فَوَضَعَ أحَدُهُمْ يَدَهُ على آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ ما قَبْلَها وما بَعْدَها، فَقالَ له عبدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإذا فِيها آيَةُ الرَّجْمِ، قالوا: صَدَقَ يا مُحَمَّدُ فِيها آيَةُ الرَّجْمِ، فأمَرَ بهِما رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِما فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي على المَرْأَةِ، يَقِيها الحِجارَةَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٨٤١ • [صحيح]

وكان اليهود متفقين مع بعضهم قبل أن يذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إذا ذهبنا وسألناه، وكانت الإجابة: الرجم؛ فإنّما هو نبي، وإذا كانت الإجابة: الجَلد، أو التحميم –وسأذكر معناها–؛ فإنما هو مَلِك.

ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن أسئلة اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم؛ كانت ليعرفوا هل هو طالب مُلك أم طالب نبوة؟ فأحيانًا أهل الباطل يختبرون العالِم؛ ليَرَوْا أَهُوَ من أهل الدين حقيقةً، بحيث يذكر حكم الدين أيًّا كان، أم سيُحوِّر ويُغيّر في الدين، فيكون طالبًا للدنيا، كما شرحنا –السنة الماضية– في قصة بلقيس امرأة سبأ عندما أرسلت لسيدنا سليمان، قالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } [النمل:35] أي: سأُرسل له هدية؛ لذلك قال المفسرون: فإن قَبِلها؛ فهو مَلِك، يريد المال والملك، وإن لم يقبلها وأصرّ؛ فإنما هو نبي، يريد الدين حقيقةً.

إذًا؛ كان اليهود أحيانًا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة؛ ليختبروه بها، ويَرَوْا أَهُوَ نبي أم ملك، فالنبي صلى الله عليه وسلم أجاب بأنَّ الحكم هو الرجم؛ فأنكروا، وقالوا: لن نأخذ هذا الحكم: {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ}؛ أي: إذا قال لكم الذي تريدونه؛ فقولوا: سنأخذ بحكمك، وإذا قال لكم حكمًا لا تريدونه؛ فقولوا: لن نقبل هذا الحكم؛ وهذه مشكلة مَن يتحاكم إلى الشرع، ويريد أن يأتي الشرع على هواه، مثلًا يحدث خلاف بين رجل وزوجته، فيقولان: علينا أن نحتكم إلى عالِم، فيجلسان، ويروي الزوج المشكلة، والزوجة تروي المشكلة، والعالِم يسمع ويحكم –مثلًا– للزوجة؛ فالزوج يقول: لا أوافق، ورجعت في كلامي، وكنت أظنّك ستحكم لي، أو يكون العكس فتقول الزوجة: لا، لن أُكمل معه، لقد كنت أظنّك ستحكم لي.

فأحيانًا نتعامل مع الشريعة بسياسة: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ} أي: إذا حكمت لي، فإذًا؛ هذا دين جميل، أما إذا حكمت عليّ؛ فأنا لا أريده، ولا أريد هذا الحكم؛ وهذا إشكال؛ لأن **الإنسان يجب أن يكون عنده استسلام للشرع، استسلام للشريعة، وليس عندما تأتي على هواي آخذ بها، وعندما تأتي مخالفة لهواي وستؤدي إلى خسارتي أردّها.**

فمثلًا عندما أكسر شيئًا لأحد، ونتحاكم إلى شخص من أهل الدين، ويقول بأنني أنا المخطِئ وأنا الذي يجب عليّ إصلاحه، فأقول: لست موافقًا، وليذهب ولْنرَ من الذي سيأتي بحقّه، وطبعًا هو سيأخذ حقه يوم القيامة إن لم يستطع أخذه الآن، ولكن الأَوْلى أن تُرَد المظالم إلى أهلها.

فالشاهد؛ ماذا قالوا عندما ذهبوا ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم؟: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ}.

وهناك رواية أخرى –كما في صحيح مسلم–: أنهم ذهبوا للنبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: الحكم الذي عندنا ليس الرجم، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنشدكم بالذي أنجى موسى ومن معه من فرعون، وأنشدكم بالذي أنزل كذا وكذا على بني إسرائيل –وظل يُذكّرهم بنعم ربنا عليهم–، وأنشدكم بكذا، وأنشدكم بالذي فعل وبالذي فعل: هل تجدون عندكم الرجم في التوراة؟)[3]، فقالوا: طالما أنشدتنا بالله، فالحقيقة أنَّ الرجم موجود في التوراة، إذًا؛ ما الذي حدث؟ ولماذا غيرتموه؟ وقصة تغيير الحكم موجودة في صحيح مسلم وفي روايات كثيرة.

قالوا: أنَّه ذات مرة زنا أحد الاشراف؛ فقالوا: لا ينبغي أن نقيم عليه الحد، ومرّت القصة دون أن يقيموا عليه الحد، ثم زنا أحد الضعفاء الفقراء؛ فقالوا: لا بد من إقامة الرجم، يجب أن نُطبّق دين ربنا، فقال الضعفاء: إنَّ الرجل الآخر زنا ولم يفعلوا له شيئًا، فلماذا سيُقام علينا الحد؟ هل لأننا ضعفاء؟، وبدأت تحدث فتنة، فإما أن يطبّق الحد على الغني والفقير، وإما ألا نُطبّقه على أيٍّ منهما؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما أهلك من كان قبلكم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[4].

هذه من الأخلاق التي تهلك الأمة، ولكن إذا طُبّق القانون على كل الأفراد؛ فستكون أمة ناجحة ومتقدمة، أما الانتقائية في التطبيق فإنها تجعل الأمة متأخرة، فعندما افتعل الضعفاء المشكلة، وقالوا: إما

3 [عن أبي هريرة:] بينا نحن مع رسولِ اللهِ ﷺ، إذ جاءه رجلٌ من اليهودِ، وكانوا قد تشاوروا في صاحبٍ لهم زنى بعدما أُحصِن، فقال بعضُهم لبعضٍ: إنَّ هذا النَّبيَّ قد بُعِث، وقد علمتم أن قد فُرِض عليكم الرَّجمُ في التَّوراةِ، فكتمتموه، واصطلحتم بينكم على عقوبةٍ دونه، فانطلِقوا نسألُ هذا النَّبيَّ، فإن أفتانا بما فُرِض علينا في التَّوراةِ من الرَّجمِ تركنا ذلك، فقد تركنا ذلك في التَّوراةِ، فهي أحقُّ أن تُطاعَ وتُصدَّقَ، فأتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسمِ ! إنَّه زنى صاحبٌ لنا قد أُحصِن، فما ترى عليه من العقوبةِ؟ قال أبو هريرةَ: فلم يرجعْ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى قام وقُمنا معه، فانطلق يؤُمُّ مدراسَ اليهودِ، حتَّى أتاهم، فوجدهم يتدارسون التَّوراةَ في بيتِ المدراسِ، فقال لهم: يا معشرَ اليهودِ، أنشُدُكم باللهِ الَّذي أنزل التَّوراةَ على موسى، ماذا تجِدون في التَّوراةِ من العقوبةِ على من زنى وقد أُحصِن؟ قالوا: إنَّا نجِدُه يُحَمَّمُ ويُجلَدُ، وسكت حبرُهم في جانبِ البيتِ، فلمَّا رأى رسولُ اللهِ ﷺ صمتَه، ألظَّ ينشدُه، فقال حبرُهم: اللَّهمَّ إذ نشدتَنا، فإنَّا نجِدُ عليهم الرَّجمَ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: فماذا كان أوَّلَ ما ترخَّصتُم به أمرَ اللهِ؟ قال: زنى ابنُ عمٍّ لملكٍ فلم يرجُمْه، ثمَّ زنى رجلٌ آخرُ في أسرةٍ من النَّاسِ، فأراد ذلك الملكُ رجْمَه، فقام دونه قومُه، فقالوا: واللهِ لا ترجمُه حتَّى ترجمَ فلانًا ابنَ عمِّ الملكِ ! فاصطلحوا بينهم عقوبةً دون الرَّجمِ، وتركوا الرَّجمَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: فإنِّي أقضي بما في التَّوراةِ، فأنزل اللهُ في ذلك: {يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...} إلى قولِه: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ}
ابن جرير الطبري (ت ٣١٠)، تفسير الطبري ٣٠٢/٢/٤ • أثبت شيء روي في ذلك

4 [عن عائشة أم المؤمنين:] أنَّ امْرَأَةً مِن بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فقالوا: مَن يُكَلِّمُ فيها النبيَّ ﷺ؟ فَلَمْ يَجْتَرِئْ أحَدٌ أنْ يُكَلِّمَهُ، فَكَلَّمَهُ أُسامَةُ بنُ زَيْدٍ، فقالَ: إنَّ بَنِي إسْرائِيلَ كانَ إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، لو كانَتْ فاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَها.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٧٣٣ • [صحيح]

أن يُطبّق الحد على الغني والفقير، وإما ألا يُطبّق مطلقًا، قالوا: إذًا تعالَوْا نجلس ونتفق، ونحذف حكم الرجم، ونصل إلى حل وسط، ونُطبِّقه على أي شخص، طالما أنكم تريدون أن نُطبِّق الحد على كل الأفراد، -تشعر كأنهم يلعبون لعبة الأحجية-.

إحياء الدين والسنن

وهكذا يستمرون في تغيير الأحكام حتى يتفقوا كلهم على حكم، فقالوا: إذًا سنغيّر حكم الرجم، واخترعوا شيئًا اسمه: التحميم؛ أي: يُدهن بالقار الأسود أو بالزفت الأسود، ويُوضع على الحمار بالعكس، ويُشهَّر به وانتهى الموضوع، ولن يعود لفعل هذا الأمر مرة أخرى، فاتفقوا على هذا الحد؛ حتى لا يُرجَم أحد الشرفاء إذا زنى ولو كان مُحصنًا، فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع ذلك قال: (اللهم إنّي أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)[5]، ورجمهما.

فأحيانًا ترك الدين لفترة طويلة؛ يُحدِث حالة من الإماتة؛ فيأتي إنسان يستعمله الله في إحياء هذا الدين، سواء كان هذا الإحياء لفريضة، أو سنة ماتت؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة)[6]؛ وليس معناه أنه ابتدعها واخترعها، ولكن حدث فيها تقصير قارب الاندثار، فيأتي إنسان يُطبّق هذه السنة؛ فتُحيا، كأنها كانت ميتة، مثلما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه).

---

5 [عن البراء بن عازب:] مرَّ النَّبيُّ ﷺ بيهوديٍّ مُحمَّمٍ مَجلودٍ. فدعاهم فقالَ: هَكَذا تجدونَ في كتابِكُم حدَّ الزّاني؟ قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائِهِم فقالَ: أنشدُكَ باللَّهِ الَّذي أنزلَ التَّوراةَ على موسى، أَهَكذا تجدونَ حدَّ الزّاني؟ قالَ: لا. ولَولا أنَّكَ نشدتَني لم أخبرْكَ. نجدُ حدَّ الزّاني في كتابِنا الرَّجمَ، ولَكِنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا الرَّجمُ فَكُنّا إذا أخذنا الشَّريفَ ترَكْناهُ، وَكُنّا إذا أخَذنا الضَّعيفَ أقَمنا علَيهِ الحدَّ. فقُلنا: تعالوا فلنجتَمِع على شيءٍ نُقيمُهُ على الشَّريفِ والوَضيعِ، فاجتَمَعنا على التَّحميمِ والجلدِ مَكانَ الرَّجمِ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: اللَّهمَّ إنِّي أوَّلُ مَن أحيا أمرَكَ، إذ أماتوهُ. وأمرَ بِهِ فرُجِمَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٢٠٨٨ • صحيح • أخرجه مسلم (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٢١٨)، وابن ماجه (٢٥٥٨) واللفظ له، وأحمد (١٨٥٢٥)

6 [عن جرير بن عبدالله:] جاءَ ناسٌ مِنَ الأعْرابِ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ عليهمِ الصُّوفُ فَرَأى سُوءَ حالِهِمْ قدْ أَصابَتْهُمْ حاجَةٌ، فَحَثَّ النّاسَ على الصَّدَقَةِ، فأبْطَؤُوا عنْه حتّى رُئِيَ ذلكَ في وَجْهِهِ. قالَ: ثُمَّ إنَّ رَجُلًا مِنَ الأنْصارِ جاءَ بصُرَّةٍ مِن وَرِقٍ، ثُمَّ جاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتابَعُوا حتّى عُرِفَ السُّرُورُ في وَجْهِهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بها، وَلا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عَمِلَ بها، وَلا يَنْقُصُ مِن أَوْزارِهِمْ شيءٌ. [وفي رواية]: خَطَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فَحَثَّ على الصَّدَقَةِ، بمَعْنى حَديثِ جَرِيرٍ. [وفي رواية]: لا يَسُنُّ عَبْدٌ سُنَّةً صالِحَةً يُعْمَلُ بها بَعْدَهُ...، ثُمَّ ذَكَرَ تَمامَ الحَديثِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٠١٧ • [صحيح]

فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ} هذا الصنف الأول، والصنف الثاني: {وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ} أجزاء اليهود الذين يأتون المجلس؛ {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ} هم جالسون يسمعون؛ ليكذبوا عليك، {سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ}، ويسمعون أيضًا؛ حتى يبلغوه للكبار، والكبار عندما يسمعون؛ يقولون لليهود الجواسيس: سنرسلك بسؤال، وذلك بعد أن حرّفوا الكلم من بعد مواضعه: {يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ}، وقيل: أنَّ السؤال لم يكن في حد الزنا، بل كان السؤال في القصاص؛ عندما قتل أحدُ أشراف اليهود أحدَ ضعفاء اليهود، وكان الحكم هو القصاص، فقالوا: اذهبوا، واسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فإن حكم بالدية؛ فخذوه، وإن حكم بالقصاص؛ فردُّوه {يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ} إلى أن قال ربنا في آخر الآية عن الذي يتعامل مع الدين بهذه الطريقة: {وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا}.

يجب أن نعرف أنَّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن[7]، وأنه يجب أن يستسلم الإنسان لدين الله سبحانه وتعالى؛ فإذا لم يستطع أن يُطَبِّق جزءًا من الدين، يقول: يا رب أنا مقصّر، ولكن لا يجوز أبدًا أن يُغيّر في الدين، يعتذر ويُطأطئ الرأس ويندم ويقول: يا رب أنا مُقصر، ولكن لا يُشرعِن أفعاله وينسبها إلى الدين؛ فقد يُخذَل هذا الإنسان ويُصاب بالفتنة –والعياذ بالله– في آخر عمره، –نسأل الله السلامة والعافية– فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن.

{وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ} هذه من الآيات المرعبة في القرآن: {وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ}؛ أي: لن يستطيع أحدٌ أبدًا هدايته، ولو اجتمع علماء الأمة كلها ليهدوه؛ لن يستطيعوا هدايته أبدًا: {وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا}.

هناك أناس –والعياذ بالله– اختاروا الرجس، والخزي: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۛ}، فهناك مَن اختار قلبه الشهوة، والخلود إلى الأرض –والعياذ بالله–: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۛ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ}.

7 [عن عبدالله بن عمرو:] إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّها بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِن أَصابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشاءُ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا على طاعَتِكَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٥٤ • [صحيح]

إذًا؛ ما نخرج به من الدرس هو:

أنَّ الإنسان عليه أن يُبلِّغ دين الله سبحانه وتعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ}، وأن يتمنى أن يستعمله ربنا في إحياء ما أُميت من الدين من فرائض وسنن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم –وهي كلمة جميلة جدًّا–: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)، فالإنسان يدعو ربنا أن يستعمله، وأن يخاف الإنسان على قلبه، ويدعو الله كثيرًا: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) وهذا كان من أكثر أدعية النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مَن هو صلى الله عليه وسلم، انظر إلى النبي صلى الله عليه و سلم يقول: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[8]، ماذا نفعل نحن إذًا؟!

فلا بد دائمًا أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، وليس معنى أنَّ الإنسان إذا وُفِّق إلى صلاة وقيام ليل، أو قراءة قرآن، أو اعتكف؛ أن يصيبه العُجب، بل على العكس، فلا يدري أحد الخاتمة أبدًا، فالإنسان لا بد أن يكون على وجلٍ وحذر، ويُكثِر من التضرع أن يكتب له ربنا حسن الخاتمة، ولذَّة النظر إلى وجهه سبحانه وتعالى، ويجب أن يُكثِر الإنسان من دعاء: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، ويتذكر دائمًا هذه الآية: {وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا}، والله سبحانه وتعالى عدل، ولا يظلم أحدًا سبحانه وتعالى {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ}؛ بسبب خزيٍ أو مرضٍ فيهم، أو نفاقٍ فيهم وفي قلوبهم، وقد أصروا عليه؛ فعاقبهم الله سبحانه وتعالى، فالله لا يظلم أحدًا أبدًا؛ فمَن أراد الهداية، وأخذ بأسبابها، وسعى لها؛ هداه الله سبحانه وتعالى، ومَن أعرض عنها، وأصرَّ، وأخلد إلى الأرض؛ أخزاه الله –نسأل الله السلامة والعافية–، ونسأل الله عزَّ وجل أن يستعملنا جميعًا، وألا يستبدلنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.

8 [عن أم سلمة أم المؤمنين:] أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان يُكثِرُ في دُعائِه أنْ يقولَ: اللَّهمَّ مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قلبي على دِينِكَ، قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أو إنَّ القلوبَ لَتتقَلَّبُ؟ قال: نعمْ، ما مِن خَلْقِ اللهِ مِن بَني آدمَ مِن بَشَرٍ إلَّا أنَّ قلبَه بينَ إصْبَعَينِ مِن أصابِعِ اللهِ، فإنْ شاء اللهُ عزَّ وجلَّ أقامَه، وإنْ شاء اللهُ أزاغَه، فنسألُ اللهَ ربَّنا ألَّا يُزيغَ قُلوبَنا بعدَ إذْ هَدانا، ونَسألُه أنْ يَهَبَ لنا مِن لَدُنْهُ رحمةً، إنَّه هو الوَهّابُ، قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ألا تُعَلِّمُني دَعوةً أدْعو بها لِنفسي؟ قال: بلى، قُولي: اللَّهمَّ ربَّ محمَّدٍ النَّبيِّ، اغفِرْ لي ذَنْبي، وأَذْهِبْ غَيْظَ قَلبي، وأَجِرْني مِن مُضِلّاتِ الفِتَنِ ما أَحْيَيْتَني.

أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، عمدة التفسير ٣٥٥/١ • إسناده صحيح